صحيفة المرأة المسلمة

العدد : ٢١٦ الموافق في شوال ١٤٢٠ هجري ٢ / ٢٠٠٠ ميلادي

عنوان المقال : الطهو البشري –٦–	بقلم : سها عبد الحميد أحمد

يوكابد – أم الفؤاد الفارغ

- بلى سيدتي المرأة

ما زالت نار الحياة موقدة

وما زالت الأرحام أوعية

وما زلت أنت المسؤولة

عن طهو الإنسان ... عن نضج الإنسان

عن تربية الإنسان ... لأنك أم الإنسان

وعلى مدار الأحداث ... تخبرنا قصص القرآن

عن روعة العلاقة الحميمة ... بين النبوة والأمومة

وإن كانت هاجر لم تتسمر عند حدود الألم وتكتف بمهمة الإنجاب والولادة .

وكان لأمومتها دور القيادة .

ومضت كحدث خُلِّدَ إلى الأبد

حدث فهمها للإسلام كاستسلام

وسعت تجاهد بدمها المذعور

وحنانها المقهور

وعطائها المغمور

راضية بكونها وقود الإبداع المستور

لتثبت حقاً أن بحر الأمومة أعمق من كل البحور

ونمضي لنبحر مع حدث جديد

حدث على فقدانه لكل أسباب الحياة والقوة

وهب البشرية أرحم أمة

حدث السيدة الغارقة بالذعر العارم

يوكابد ... سيدة الفؤاد الفارغ [1]

التي اكتمل طهوها ونضج

تخبرها الولادة أن سياط أوجاع مخاضها قادمة
وجنود فرعون في كل الطرقات موزعة
تراقب .. وتتجسس وتصطاد
وفي حياتنا كمٌّ هائل من الفراعنة
فراعنة عادات وبدع ومفاهيم مستقرة في ذواتنا
ألفتها عافيتنا
فراعنة تأمر وتنهى .. ونجيب ونطيع
فراعنة تحدد لنا المناهج .. وترسم لنا الاتجاه
وتعطينا بالقدر الذي تريد ولا نريد
ولكل فرعون على مدار الحياة أبناء وأحفاد
والصراع بين الحق والباطل دائم إلى الأبد
وينفخ صور الإنجاب في الأمومة التي تشارك فرعون في الزمان والمكان
هيا يا يوكابد .. الجنين قادم
اطردي عظامك من مستقرها
شُقّي في جسدك آباراً
واحفري في كيانك أنفاقاً
ثم ضعي الوعاء على نار الحياة
لتطفىء صرخته الأولى النيران
وتبلغك أنك أديت المهمة
فلقد نضج الجنين في عتمة جسدك المضيئة .
كل مولود يقتل في البيوت المجاورة .
ومولودك قادم
سبعون ألف نفس خرجت من ظلام الأوعية المتوهج
إلى سواد القتل الموحش
ثمناً زهيداً لحلم طاغية
هددت الرؤيا طغيانه
وصرخت في فؤاده : جنين سيكبر ويسلبك ملكك .

وينفيك من أرضك

ويقهر سلطانك

أحس أن نهايته قادمة

ليتزعزع عرشه المستعار

والفرعون لا يغدو فرعوناً إلا في عصور الأقزام البشرية

عندما يخنع إباء الإنسان ويغريه طول الأمل

ويصبح عن منهج الله كأنه في غيبوبة

كل يترقب عورة الآخر

كل ينتقد كبوة الآخر

كل يعتبر نفسه خارج دائرة المكان والزمان

وكل يدور في نفس الدائرة

لنكون كمحصلة تربة خصبة تربو بها الفراعنة

وجنين يوكابد قادم

وجنود فرعون ضحايا تقتل ضحايا

ضحايا لا تملك إلا أن تنفذ الأوامر بحذافيرها

فالفرعون يصبح فرعوناً

عندما لا يجرؤ أحد أن يسأله : لِمَ وعلامَ ومتى ؟

وفرعون موسى اعتقد أنه رب أعلى

والمذنب من رضي لنفسه أن يكون عبداً أدنى

وتصرخ يوكابد بابنتها

هيا يا مريم أحضري القابلة

تركض الملوعة وتأتي بها

والراوي الذي خلق بداية الحدث عالم بنهاية ومغزى الحدث

رب القرآن

المتعالي العظيم المنَّان

لم يرو لنا شيئاً عن أبي المولود عمران

لكنه تعالى أبدع في وصف صاحبة الطهو الحقيقية

الأم بفؤادها الخاوي وهي أحوج ما تكون للأمان
وعبر ذعرها أطلق موسى صرخته الأولى
لتستقبل ولادته وقد فقدت كل أسباب الاطمئنان
كم هي مهمة المرأة مشرفة
كم هي مسؤولية طهوها عظيمة
تُنهي القابلة المهمة .
تغادر البيت خِلسة
لتتبعها عيون الحراس المراقبة .
ويقتحمون بيت يوكابد بغتة .
فجنود الفراعنة لا يستأذنون ولا يحترمون عورات البيوت
ولا يقدرون قدسية عفاف نساء البيوت
يستكبرون عن واجب الاستئذان
ترمي يوكابد مولودها الغض في التنور
لينجو من قبضتهم بفضل من الله الرحيم الغفور
ويعودون أدراجهم خاسرين
ورغم جزع الأم الصامت تغذيه وتعطيه
وفي كل يوم يكبر موسى الصغير
وهو بحماية الكبير المتعالي البصير
وكلما يكبر الحق ويعلو
كلما تضعف نار الباطل وتخبو
ويوحي الله للأمومة التي تحتضن النبوة
أن تلقيه بين ذراعي اليَمْ
بكل ما في ظلماته من خطر وغمٍّ
تنتظره حتى يروي ظمأه
ليرتشف الصغير قطراتها الباكية على فراقه
القطرات التي تترجم آلامها إلى مؤونة معطاءة
والمبدع من يرد على الحرمان بالعطاء

وعلى الظلم .. بالعفو والحلم

وتنفذ أمر وحي الله وترمي خفقة قلبها في تابوت مغلق

ورغم أن كبدها على قيد الحياة

لكنها مدركة أن في طاعتها لمنهج الله النجاة

وراحت تثبت لوعتها بإيمانها أن في أقدار الله العفوَ والسكينة

حتى ولو بدت لنظر الإنسان القاصر هلاكاً ومصيبة

ففرج الله أرحم بضيق الإنسان من نفسه

ويبتعد التابوت عن نظرها

وكل أم في الدنيا لها في الآخرة موقف مشابه

يوم تذهل عمن أرضعت

فموقف الحساب برهبته

يتركها لا تبالي بمن أنجبته

وتعود يوكابد أدراجها إلى بيتها

وهي تلملم شتات عروقها

لتدخل أمومة آسية المحرومة

حدثاً منقذاً لمأساة الرواية

الحدث الذي لم يخطر ببال الجبابرة

لأنهم يفرون من شبح العدالة

يظنون أنهم قادرون على قمع أنفاس الحق في أي مكان .

ولعله يعلو في عقر دارهم

ومراكز دوائرهم

وآسية على صلاحها وتقاها وعدالتها

ضلع من أضلاع فرعون

عافاها الله من أن تشاركه بالذرية .

ومنحها قمة العطاء .. عقماً لا تكون بذريته شقية .

وقذف لها باليم الجنين النبي كهدية

فغدت تغريه بقاتله كقُرَّة عين

ولكل جبروت زمن إلى حين
والقاتل يدخل من ثغرة وفي خلسة
لكن فرعون فتح لقاتله الأبواب
وأذن لموسى بالدخول .
لأن بقاءه أكثر من برهة لن يطول .
فلقد وعد الله يوكابد التي كادت أن تضل ويفضح أمرها
لولا أن ربط الله على قلبها
ووعدها أن يرد لها رضيعها
وعندما يثبت الإنسان
دلالة على أن الله أنعم عليه بحلاوة الإيمان
سبحانه وتعالى كم هو ودود قدوس رحمن
فعلى صغره رفض المراضع
وبصُرت به مريم عن جنب وهم لا يشعرون
يبحثون عن ثدي يتلقفه .. ولا يجدون
ويطول البحث وهم هائمون
وتجند لبكاء موسى آسية وفرعون
وجوع الرضيع حوَّل جبابرة الطاغوت إلى عبيد لفؤاد يوكابد طائعون
ولتحقيق أمل الأم الملوعة مجندون
يبحثون عنها وهم لا يعرفونها
ولا يبغون سواها وهم يجهلونها
لتدلهم مريم عليها .. ويعود إليها
من خدرها إلى اليم إلى فرعون إلى ثدييها
ويدعمها الطغيان بأجر وهي تكبِّر له قاتله
لتقر عينها ويذهب عنها حزنها
كيف بعد يوكابد يمكن أن تجزع الأمهات ويضعف النساء ؟!
كيف لأنثى تعتصم بمنهج الله وتعتنقه كاستسلام
لا تكون بإسلامها .. دعامة لكل الأركان ؟!

ويكبر موسى ويترعرع

ليهتز عرش فرعون ويتزعزع

وينضج موسى ويُبلغ بالنبوة

ويسلب من طغيان فرعون كل ما في جبروته من قوة

ويستمد موسى النبي الكبير

بوادر الإيمان وبذوره من تجربة يوكابد مع موساها الصغير

وكيف لا يقدر أن يتغلب على كفر موسى الشنيع

وقد غلبه وهو رضيع

ويؤدي موسى رسالة النبوة

ويضمحل الباطل ويعلو الحق

ويغرق فرعون وعبيده

وينجو موسى وأتباعه

وفي عالمنا اليوم مئات من الفراعنة

تحتاج ألف موسى .. من غير يد بيضاء ومن دون عصا تفحم السحرة .

والمعجزة بين أيدينا خالدة

وفي يد كل أم المعجزة حاضرة

كتاب الله والسعي في فهم تعاليمه

فلنمض سيدتي المرأة ..

نعلمه لأولادنا ونلقنه

ولكل أم الخيار في أن يكون أكبادها ورثة موسى

يكبر ليقضي على أحد الفراعنة

فلتمض على يقين بأنها ناجحة

حتى ولو كانت يدها على الجمر قابضة

فمائة آسية كان قدرهن أحد الفراعنة

آسية صبرت وفازت بالجنة

ويوكابد وهبت كبدها لله فنالت المرتبة العالية

وأقدار الله فينا على أي حال نافذة

مهمتنا كبشر أن نؤدي دور الخلافة بأمانة

وأن نكون بالإسلام بداية خير لكل بداية

والغيب وحده صاحب النهاية

الهوامش:

يوكابد بنت لاوي أم موسى تزوجت من رجل عبراني يعود نسبه إلى يعقوب عليه السلام (جاء في التوراة أن اسمه عمران ، الآية : ٢٠ - الإصحاح الثاني من سفر الخروج) ، وكان ابن أخيها ولم يكن زواج الأقارب محرماً وجاء التحريم على يد موسى بعد خروج بني اسرائيل من مصر وأنجبت منه مريم وهارون وموسى عليهم السلام .